التراث أقدم معبود أشرك به البشر

كتبه غريب الديار بتاريخ الأحد١٥ شعبان ١٤٤٢

فهرست المقال

التراث أقدم معبود أشرك به البشر

ناقشنا في مقال سابق نوعا من الأرباب الذي يعبده الناس قديما وحديثا, وهو الحاكم الذي لا يعبد الله وحده, واليوم سوف نتحدث عن أقدم إله عبدته البشرية مع الله عز وجل, ألا وهو التراث, الذي عبر الله عنه في قوله:

﴿ **بَل قالوا إِنّا وَجَدنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنّا عَلى آثارِهِم مُهتَدونَ** ﴾ الزخرف 22

نعم إن التراث هو معبود البشر قديما وحديثا, فالمرء غالبا ما يكون على دين قومه, يتقيد بما يتقيدون به من نظم وعادات وشعائر, فهي جذوره التي بكفره بها يقطع صلته بمجتمعه وجذوره, وهذا أمر ليس بالهين فعله.

إن الحاجز الذي يحول بين الناس وبين ما أنزل الله دوما هو التراث, فالمرء يتبع تراثه أيا كان تراثه, وهو يظن أن الهداية تكمن في اتباع تراثه, لأنه ينظر دوما إلى سلفه نظرة إجلال وتقدير, وقد بين الله شعورهم ذلك في نهاية الآية السابقة:

﴿ **بَل قالوا إِنّا وَجَدنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنّا عَلى آثارِهِم مُهتَدونَ** ﴾ الزخرف 22

فالخلف دوما يرى أن السلف أصلح وأزكى منهم, وكلما تقادم العهد, كلما زاد تقديس السلف, هذا التقديس يمنع الخلف من النظر إلى التراث نظرة فاحصة طالبة

للحق، فالتراث متبع مهما يكن، وهذا ما عبر الله عنه في قوله مخبرا عن حال الكفار في كل العصور:

﴿ وَإِذا قيلَ لَهُمُ اتَّبِعوا ما أَنزَلَ اللَّهُ قالوا بَل نَتَّبِعُ ما أَلفَينا عَلَيهِ آباءَنا أَوَلَو كانَ آباؤُهُم لا يَعقِلونَ شَيئًا وَلا يَهتَدونَ۝وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بِما لا يَسمَعُ إِلّا دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فَهُم لا يَعقِلونَ ﴾ البقرة 170-171

فالكفار في كل العصور يمتازون بالتقليد الأعمى لتراثهم الذي يجهلون تفاصيله في الغالب، وهم بذلك مجرد آلات ناطقة، لا يعقلون ما ينطقون به فعلا، بخلاف المؤمنين الذين عندهم ميزان واضح يميزون به بين الصالح والطالح كما بينا في أول ما ميز إبراهيم صلى الله عليه وسلم عن قومه.

تجدر الإشارة أن تمسك الكفار بتراثهم نابع عن كونه ينسب لأجداد صالحين، وربما لأنبياء، كما كانت الحال مع مشركي مكة، الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم، ومن ثم فإن تراثهم يكتسب قداسة من تلك النسبة، وإن كانت غير حقيقية.

اليهود والنصاري تراثيون يتبعون تراثهم، ولا علاقة لهم بأنبياءهم عليهم السلام، رغم كونهم يتشدقون بحبهم، خصوصا النصارى الذين يدعون الناس للإيمان بالمسيح، وهم أكفر الناس بالمسيح صلى الله عليه وسلم، وإنما يتبعون من يسمونهم العلماء والأحبار الذي حرفوا رسالة المسيح صلى الله عليه وسلم، وجعلوا منه إلها لهم.

إننا لسنا بدعا من الأمم، خصوصا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر أننا سنتبع سنن الذين من قبلنا، فهل نحن أيضا نعبد التراث كما فعلت الأمم من قبلنا؟

هل نعبد التراث نحن أيضا؟

مبدئيا كلنا يدعي أنه يعبد الله عز وجل وأنه على دين الإسلام، كل فرد في هذه الأمة يدعي ذلك، لكن هل هذه الدعوى في الحقيقة هي دعوى كل الأمم السابقة، فالنصارى الذين جعلوا الله ثالث ثلاثة يدعون أنهم يعبدون الله وحده، لذلك مجرد الدعوى لا يثبت شيئا.

حين نسأل الواحد منا لماذا أنت مسلم؟ أكثر الناس سيجيب لأني ولدت في بيئة مسلمة ولأبوين مسلمين، لذلك أنا مسلم.

وإذا سألناه عن الإسلام الذي ينتسب إليه وعلاقته بالفرق، سيقول غالبا أن الإسلام ينقسم إلى سنة وشيعة، وأن السنة أربع مذاهب فقهية، ومذاهب عقدية، وأن الشيعة أيضا مذاهب كثيرة، ولكن كل هؤلاء مسلمون داخل دائرة الإسلام، وهو على المذهب الذي ورثه عن والديه.

هذه الأجوبة السابقة هي أجوبة أغلب الناس، بغض النظر عن اختلاف طرقهم في التعبير عنها، فمنهم الصريح، الذي يقولها مباشرة، ومنهم المرواغ الذي يحاول أن يخفي هذه الحقائق ويضفي على إيمانه نوعا من المنطقية بدل التقليد.

إذا نظرنا لهذه الأجوبة سوف يتضح لنا أن أغلب الناس يدعون الإسلام لأنهم ورثوا الإسلام، وعند التدقيق، هم في الحقيقة ورثوا مذهب آبائهم، وليس الإسلام، وهذه بالضبط هي حال الكفار الذين وجدوا آباءهم على شيء، وهم يتبعونه.

وكما سمى كفار قريش تراثهم بملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وكما سمى النصارى تراثهم بدين عيسى صلى الله عليه وسلم، يسمي أحدنا المذهب الذي ورثه بالإسلام، وعند التدقيق لا فرق بيننا وبينهم.

فالإسلام كما بينا سابقا وحي من الله عز وجل، الله فيه هو المشرع لا مشرع سواه، ومحمد صلى الله عليه وسلم فيه هو الإمام، لا إمام سواه، وهو محصور في القرآن والسنة، كمل قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمنتسب إليه يسمى مسلما ليس له اسم آخر.

بينما المذهب فالمشرعون فيه لا حصر لهم، فمجتهدوا المذهب يشرعون باجتهادهم وفقا لمصادر التشريع في مذهبهم والتي تختلف باختلاف المذهب، والإمام في المذهب ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم بل رجل آخر نصبوه إماما، ولكل مذهب كتبه التي تميزه عن المذهب الآخر، والتي تتميز عن القرآن والسنة، والذي يدين بمذهب يتسمى به، ولكن بالرغم من هذا كله المذهب هو الإسلام في نظرنا، ومن أنكر ذلك فهو خارجي تكفري، ضال مضل.

تماما كحال النصارى اليوم، الذين يدعون أنهم يتبعون عيسى صلى الله عليهم وسلم، ويتغنون بحبه، ومن يقول لهم أنهم لا يتبعون عيسى صلى الله عليه وسلم، وإنما يتبعون بولس الذي حرف دينهم، يتهمونه بالجهل والضلال، ويقولون أن بولس أفهم لكلام عيسى منهم لذلك يتبعونه.

لقد تفوقنا على الأمم السابقة في اتباع التراث، حيث ظهرت فينا فرقة تتسمى بالتراث وتفتخر به، أعني بذلك السلفية، فالسلفية تعني اتباع السلف أي تراث السلف، والسلف لا يقصدون به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط، بل كل من بزغ اسمه في العصور الماضية، وقد سبق وناقشناهم في مقال مستقل تجده هنا.

كيف تحولنا من عبادة الله إلى عبادة التراث؟

في الحقيقة أدت عوامل سياسية وتاريخية إلى التحول تدريجيا إلى عبادة التراث بدلا من عبادة الله عز وجل، أهم تلك العوامل في تصوري هو قصور التعليم عن الجهاد في نهاية العهد الراشدي وبداية العهد الأموي.

حيث أن الجهاد كان يفتح البلدان الواسعة جداً في ظرف قصير جدا، مما جعل الكثير من الناس يدخل في الإسلام طواعية ويحسن إسلامه كما سبق وناقشنا في مقال المقارنة بين الفتح الإسلامي والاستعمار الأوروبي، هذه الجيل الذي أسلم حديثا بالرغم من حسن إسلامه، لم يكن تلقى التربية الكافية التي يمكن أن يمرر بها الإسلام كما هو إلى أبناءه.

ومن ثم أصبح إيمان الجيل الثاني أكثر هشاشة، وزاد من ذلك المورث الحضاري لتلك الشعوب قبل الإسلام، فبدأت تظهر الفرق العقدية والفقهية شيئا فشيئا، وتحول الدين شيئا فشيئا من وحي من الله عز وجل إلى نتاج فكري قابل للأخذ والرد.

دور أهل الرأي في تحريف الدين، وحرب المسلمين لهم

هذا التحول كان من أبرز المساهمين فيه أبو حنيفة النعمان الذي أسس ما عرف في زمانه بمدرسة الرأي المسؤولة عن تحريف الدين، لذلك حاربها علماء الإسلام حينها، واتهموا أبا حنيفة بالزندقة، بحسب المصادر المتوفرة الآن، والتي منها الضعفاء الكبير للعقيلي الذي جاء فيه في ترجمة أبي حنيفة في المجلد الرابع الصفحة 284 .

حدثنا سليمان بن داود القطان قال: حدثنا أحمد بن الحسين الترمذي, قال , حدثنا أبو نعيم ضرار بن صرد , قال: حدثنا سليم المقرئ قال: سمعت الثوري يقول: قال لنا حماد: أفيكم من يأتي أبا حنيفة؟ بلغوا عني أبا حنيفة أني بريء منه. وكان يقول: القرآن مخلوق ضرار ليس بثقة حدثنا عبد العزيز بن أحمد بن الفرج , قال: حدثنا أبو بكر بن خلاد , قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي , يقول: سمعت حماد بن زيد يقول: سمعت أيوب , وذكر أبو

حنيفة , فقال أيوب: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم , ويأبى الله إلا أن يتم نوره , ولو كره الكافرون}.

حدثنا محمد بن عبد الرحمن السامي، وحدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، قال , حدثنا مؤمل، عن عمر بن إسحاق قال: سمعت ابن عون يقول: ما ولد في الإسلام مولود أشأم من أبى حنيفة , وكيف تأخذون دينكم عن رجل قد خذل في عظم دينه. حدثنا محمد بن أحمد الأنطاكي قال: حدثنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي قال: قال سلمة بن حكيم , لما مات أبو حنيفة: الحمد لله , إن كان لينقض الإسلام عروة عروة. حدثنا الفضل بن عبد الله قال: حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني قال: حدثنا مؤمل قال: كنا عند سفيان الثوري , فجاء ذكر أبي حنيفة , فقام , وقال: غير ثقة , ولا مأمون. حدثنا حاتم بن منصور قال: حدثنا الحميدي قال: سمعت سفيان، يقول: ما ولد في الإسلام مولود أضر على الإسلام من أبي حنيفة. حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا منصور بن أبي مزاحم قال: حدثنا مالك بن أنس، يقول: إن أبا حنيفة كاد الدين , كاد الدين،. حدثنا عبد الله بن أحمد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الرحيم، حدثنا أبو معمر، حدثنا الوليد بن مسلم قال: قال لي مالك بن أنس: يذكر أبو حنيفة ببلدكم؟ قال: قلت: نعم , قال: ما ينبغي لبلدكم أن تسكن. وقال: حدثنا أبو بكر الأعين قال: حدثنا منصور بن سلمة أبو سلمة الخزاعي قال: سمعت حماد بن سلمة , وسمعت شعبة يلعن أبا حنيفة. حدثني عبد الله بن الليث المروزي قال: حدثنا محمد بن يونس الجمال قال: سمعت يحيى بن سعيد يقول: سمعت شعبة، يقول: كف من تراب خير من أبي حنيفة4

هذه الحرب التي شنها علماء الإسلام على الرأي لم تكن كافية، كما أن قصور كثير من العلماء عن الإجابة عن أسئلة الناس مخافة أن يقولوا على الله بغير علم، وتجاسر أهل الرأي على الفتوى، لدرجة أنهم يفترضون المسائل ويجيبون عليها جهلا منهم، جعل الدهماء تتبعهم، فالناس تريد من يعطيها جوابا بغض النظر عن مدى صواب ذلك الجواب.

هذا الأمر كان أحد الأسباب في تحول الناس إلى عبادة التراث بدلا من عبادة الله عز وجل، وإن شاء الله سوف نتطرق لهذا الموضوع بتفصيل أكبر في المقالات القادمة من سلسلة من القمة إلى الهاوية.

كيف تنجوا من عبادة التراث؟

للنجاة من عبادة التراث ينبغي الإسلام إسلاما صحيحا مبنيا على أدلة قطعية, فكما رأينا في مقال لا إكراه في الدين, وينبغي أن يكون الإيمان راسخا مبنيا على أدلة قاطعة بحيث يستطيع المرء أن يثبت لنفسه أولا, والناس ثانيا أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلا, وأن القرآن كلام الله فعلا, وأن السنة النبوية وحي من الله عز وجل وليست مجرد رأي لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد هذا يعبد الله بالدليل المحصور في الوحي قرآنا وسنة, فإذا فعل المرء هذا واعتصم بحبل الله عز وجل استحال كفره كما أخبر ربنا في هذا السؤال الاستنكاري:

‹ وَكَيفَ تَكفُرونَ وَأَنتُم تُتلى عَلَيكُم آياتُ اللَّهِ وَفيكُم رَسولُهُ وَمَن يَعتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ ۝ يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَموتُنَّ إِلّا وَأَنتُم مُسلِمونَ › آل عمران 101- 102

إن الاعتصام بحبل الله إنما يكمن في اتباع الوحي حصرا كما أمر ربنا عن وجل في قوله:

‹ اتَّبِعوا ما أُنزِلَ إِلَيكُم مِن رَبِّكُم وَلا تَتَّبِعوا مِن دونِهِ أَولِياءَ قَليلًا ما تَذَكَّرونَ › الأعراف 3

وهذا الاتباع إنما يكون بالسؤال دوما عن وحي الله عز وجل وقرآنا وسنة والتمسك به, وعدم قبول فتوى لا تستند صراحة على القرآن والسنة فقط, لأن قبولها فيه اتباع لغير ما أنزل الله وهو محرم علينا بالآية السابقة, فمن فعل ذلك يسلم له دينه ويفلح في دنياه وآخرته.